كراس الذاكرة

1

ما لنا وفلسطين ؟!

عبد القادر ياسين

إهداء

إلى أرواح الأبطال : أحمد عبد العزيز، ومؤسس العمل الفدائي الفلسطيني، البكباشي مصطفى حافظ، والبطل السوري ،جول جمال..

مقدمة

لم يتورع حكام مصريون , في التاريخ المعاصر, عن تعليق مشكلات مصر على شمّاعة فلسطين وقضيتها الوطنية , ورتّب أولئك الحكام على هذا التعليق دعوة صريحة لغسل يد مصر من الشعب الفلسطينى، وقضيته الوطنية .

لقد تعرّض الأخيران على أيدى حكام عادوا وطنهم الصغير(مصر) لصنوف شتى من الاضطهاد . ولم يكن الطاغية **اسماعيل صدقي باشا** الوحيد في هذا الميدان , كما لم تكن عضويته في مجالس إدارة اثنتيْ عشرة شركة صهيونية في مصر, السبب الوحيد لتحيُّز صدقي إلى المعسكر الاستعماري – الصهيوني.

جاء **السادات** , وتصالح مع الصهيونية وكيانها, وتمنى لو أن الجيش الصهيوني ألحق الهزيمة الكاملة بالمقاومة الفلسطينية, في اجتياح ذاك الجيش لجنوب لبنان, ربيع العام 1978(1) .وكان طبيعيًا أن يقرن **السادات** صلحه ذاك مع عدو الأمة ، باضطهاده للشعب الفلسطيني , وتنكُّره للقضية الفلسطينية .

نكتفي بهذيْن المثليْن **(صدقي,والسادات)** ,مقابل مثليْن ناصعيْن لزعيميْن وطنييْن ,لا يشقُ لهما غبار ,هما **مصطفى النحاس باشا** ,**وجمال عبد الناصر**.

في هذا الكتيِّب , ثمة معالجة لما أُثير من شبهات حول الشعب الفلسطيني؛بدءًا من بيع الأرض, إلى محاولات السطو على سيناء , ناهيك عن "التطبيع" مع العدو الصهيوني . وقبل هذا كله , ثمة لمحة عن جغرافية فلسطين , ذلك القُطر موضوع الكتيب ، قبل أن ننتقل للمحة عن النضال الوطني الفلسطيني . بذا ، لعلنا نكون ألممنا بشتى أطراف الموضوع,في مختصر مفيد . حتى لا تفلت منا البوصلة .

القاهرة في 2015/8/24 **المؤلف**

(1) للمزيد أنظر: محمد كامل إبراهيم ، **السلام الضائع في كامب ديفيد** ، القاهرة ،سلسلة "كتاب الأهالي" (12) ،كانون الثاني / يناير 1987،ص216 .

الفصل الأول

ست إضاءات ضرورية

لطالما استغل حكام ومسئولون مصريون ضعف إلمام الشعب المصري بالقضية الفلسطينية، حتى يسمموا أفكار الشعب بصدد هذه القضية؛ على نحو يتعارض مع ما يقدمه الحكام والمسئولون الوطنيون عن القضية نفسها.

الإضاءة الأولى : المشهد الجغرافي

لعل أهم ما في جغرافية فلسطين موقعها الاستراتيجي، الذي جعلها محط أطماع الاستعماريين، ومخلبهم الصهيوني. فعدا عن توسُّطها قارات العالم القديم (آسيا، وأفريقيا، وأوروبا)، تفصل فلسطين الجزء الآسيوي من الوطن العربي عن جزئه الأفريقي. والأهم أن فلسطين أصلح المواقع كلوحة قفز إلى بقية مشروع **"إسرائيل الكبرى"**، بل غدا يصلح حتى لـ**"إسرائيل العظمى"**، التي يغري الوهن العربي الرسمي الصهيونية على تنفيذها.

إن فلسطين هي **أرض المفارقة الطبوغرافية**، فبرغم صغر حجمها، نراها تتوزع ما بين صخب البحر، وموات البادية؛ ومن انبساط السهل، إلى وعورة الجبل، وارتفاعه. وفي حد هذا الجبل، ثمة الغور- في أقصى شرق فلسطين– أوطى مناطق العالم. وإلى الغرب منه هضبة، وسلسلة جبال، في موازاة البحر الميت، حيث تمتد من أم الرشراش (العقبة)، جنوبًا، حتى تتصل بجبال لبنان الغربية، شمالاً. مرورًا بجبال النقب، والخليل، والقدس، ونابلس، والجليل. وفي النهاية الشمالية لهذه السلسلة يقع جبل الكرمل. بينما تغطي صحراء النقب الجزء الجنوبي من فلسطين، لتحتل ما يقارب نصف مساحة البلاد، على شكل مثلث، رأسه الجنوبي خليج العقبة، والشمالي مدينة الخليل، وفي الغرب مدينة غزة، وتتصل النقب، في الجنوب، بصحراء سيناء في مصر.

تقع فلسطين بين خطيْ عرض 30ُ 29° و15ُ 33°، وخطي طول 15ُ 34°، و40ُ 35°، يحدُّها من الشمال لبنان (على امتداد 79كم)، وفي الشمال الشرقي سوريا (بحدود طولها 70كم)، وفي الشرق جاءت شرقي الأردن.

تتخذ فلسطين شكل مستطيل، يمتد ضلعاه الطويلان شمالاً وجنوبًا، ويبلغ طول البلاد من شمال بحيرة الحولة وحتى العقبة، 430كم، فيما يتغير عرضًا ، حيث يتراوح ما بين 50 و70كم، في أقصى الشمال ، ليصل إلى 82 كم عند القدس، في الوسط، وإلى 117كم عند رفح وخان يونس، في أقصى جنوب السهل الساحلي، ليبدأ في التناقص، من جديد، في الاتجاه نحو خليج العقبة، في أقصى الجنوب الشرقي. لذا فإن طول فلسطين يمثل ستة أضعاف عرضها، تقريبًا.

تتمتع فلسطين بمناخ البحر المتوسط، بشتائه الدافيء، وصيفه الجاف، فضلاً عن الاعتداليْن.

الإضاءة الثانية : هل نغسل أيدينا من فلسطين؟!

ما لنا وفلسطين؟! ألا يكفينا ما نحن فيه من مشكلات؟! ألم نضحي في سبيل فلسطين بالغالي والنفيس؟! لقد قدمنا ما علينا تجاه الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية، وآن لنا أن نلتفت إلى مصرنا، فنحدِّثها، وننميها، ونخرج أنفسنا من الضائقات الاقتصادية التي ألمت بنا؛ و"ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع"!

الرد بسيط، وهو:

(1) أن فلسطين مجرد عتبة لكل من يريد غزو مصر، منذ عشرات القرون؛ أي أن مصر هي هدف الهجمة الصهيونية الاستعمارية، التي جعلت **"من النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل"** شعارًا لها؛ بمعنى أن الهجمة اتخذت من فلسطين مجرد رأس جسر من أجل المشروع الصهيوني. بل إن الصهيونية أذت مصر وشعبها، حتى قبل قيام الكيان الصهيوني نفسه (1948). وهذا وزير الصحة المصري، **نجيب اسكندر باشا**، يؤكد، سنة 1947، بأن الصهاينة هم من دسُّوا ميكروب الكوليرا في مصر، فتفشّت على النحو المعروف؛

(2) فضلاً عن أن الكيان الصهيوني إنما زرعته الإمبريالية العالمية في قلب وطننا العربي، حتى تحول دون وحدته، وتقدمه، وليحرس المصالح الامبريالية، ويستنزف قوانا ومواردنا، بما يحول دون قيام دولة عربية قوية، على غرار تجربة **محمد علي**؛

(3) وهل يمكن إغفال دلالة بدء الاستيطان اليهودي في فلسطين، في السنة التي بدأ فيها الاحتلال البريطاني لمصر (1882)؟!

من هنا ،أجمعت القوى الوطنية المصرية على أن **"فلسطين قضية مصرية"**؛ الإسلامي يشدِّد على أنها أُولى القبلتيْن، وثالث الحرميْن الشريفيْن، ومسرى **الرسول** (صلى الله عليه وسلم)، ومهد **المسيح** (عليه السلام). أما العروبي،فيرى فلسطين جزءًا حميمًا من الوطن العربي، تحريره هدف ملح لكل القوى الوطنية المصرية. فيما يرى اليساري في فلسطين قضية تحرر وطني، وضحية للامبريالية والصهيونية، وعلينا تحريرها. يبقى الوطني المصري، الذي يشدِّد على أن فلسطين قضية أمن قومي مصري. وبذا نكون أمام إجماع وطني مصري على أن **"فلسطين قضية مصرية"**، أما الآخرون فيُعادون الشعب الفلسطيني، وقضيته الوطنية، كما يعادون الشعب المصري ،وقضاياه.

البعض يرى أن مصر ضحَّت كثيرًا من أجل فلسطين، بينما يرى آخرون بأن مصر إنما خاضت الحروب ضد الكيان الصهيوني (1948، 1956، 1967، 1973) لأسباب مصرية بحتة؛ بينما نحن أمام قضية واحدة، وعدو واحد، وشعب واحد.

الإضاءة الثالثة : هل باعوا أرضهم؟!

مع تسليمنا بكل ما قيل أعلاه، ثمة ما يُشاع عن أن الفلسطينيين باعوا أرضهم. وهل يستحق من باع أرضه أن نخف لنجدته، حتى لو كان شقيقنا؟!

ما أن أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرارها القاضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود (1947/11/29)، حتى توزّع **"الشاي"** في أنحاء مصر.

"الشاي" هو جهاز المخابرات الصهيوني، قبل قيام الكيان الصهيوني، وقد امتلك ثاني أكبر فرع له في مصر، بعد الاتحاد السوفييتي .

بثَّ عناصر **"الشاي"** بين الشعب إشاعة بيع الفلسطينيين لأرضهم. وهذه فرية لا تمر إلا على كل من لا يلم بالقضية الفلسطينية. أما لماذا انتشر **"الشاي"** ، وبائيًا ، في تلك الفترة، فلأن الحكم الملكي المصري كان مترددًا ما بين إرسال الجيش المصري ، لنجدة شقيقه الفلسطيني، وما بين الاكتفاء ببقاء الجيش على الحدود مع فلسطين؛ وأراد الصهاينة _ بإشاعتهم هذه _ ترجيح الاحتمال الثاني.

لكن، عند قيام الكيان الصهيوني ، كانت المؤسسات الصهيونية تمتلك نحو 500 ألف فدان، أي نحو 6% من مجموع أراضي فلسطين ، فمن أين أتت تلك المؤسسات بكل تلك الأفدنة؟!

سؤال مشروع ومهم، والإجابة عليه بسيطة ، ومودعة في المراجع الصهيونية والبريطانية، التي تؤكد بأن نحو 170 ألف فدان باعها الحكم العثماني للصهاينة، والرقم نفسه تقريبًا باعه أو أهداه الانتداب البريطاني، والرقم نفسه باعه عرب غير فلسطينيين، بعد أن منعت سلطات الانتداب غير الفلسطينيين من الدخول إلى فلسطين، ما اضطر ملاك الأراضي العرب إلى عرض أراضيهم للبيع، فتقدم الصهاينة –وهم من يمتلكون القدرة الشرائية الأعلى- بعطاءاتهم ، فرسي عليهم العطاء.

على أن هذا لا يعني أن الصهاينة لم يمتلكوا فدانًا واحدًا من الفلسطينيين، وإلا لما حرَّم الشعب الفلسطيني على من باع أرضه ، أو سمسر للصهاينة من أن يُدفن في مدافن المسلمين. لكن النسبة كانت ضئيلة للغاية، ولم تصل إلى 3% من مجموع الأراضي التي انتقلت إلى الصهاينة.

ما حصل كان منطقيًا، فثمة أراضٍ أميرية، تمتلكها الحكومة، وتتصرف فيها كيف تشاء. وفي مصر، حين قامت ثورة 23يوليو/تموز 1952، اكتُشف بأن الأجانب يمتلكون ما يربو على 15% من مجموع الأراضي الزراعية المصرية، فيما استحوذت العائلة المالكة على ما يزيد على الخمسين في المئة، وللسبب نفسه (الأراضي الأميرية). دون أن يتجرأ أحد على الزعم بأن المصري باع أرضه.

إلى ذلك، لو كان البيع قد تم، فلماذا لم يُشهر الصهاينة صكوك البيع في المحافل الدولية، التي أصدرت نحو 150 قرارًا، قضت بعودة الفلسطينيين إلى ديارهم؟!

الإضاءة الرابعة: مطامع فلسطينية في سيناء!

يحلو للبعض أن يتهم الشعب الفلسطيني بأنه يطمع في أراضي سيناء، من أجل التوطّن فيها، ويجهل هذا البعض، أو يتجاهل، حقائق التاريخ القريب.

في يونيو/حزيران 1953، وقَّعت الحكومة المصرية اتفاقاً مع الإدارة الأمريكية ، قضى بتوطين اللاجئين الفلسطينيين ، المقيمين في كل من قطاع غزة ومصر، في موقع بشمال غرب سيناء. وعمد جيش العدو الصهيوني إلى شن العديد من الاعتداءات العسكرية ضد مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، لإرغامهم على أن يلوذوا بـ**"مشروع سيناء"***. وتصدت القوى الوطنية في القطاع لهذا المشروع الأمريكي، الذي هدف إلى طيْ القضية الفلسطينية.

غني عن القول بأن عبد الناصر ظل ، حتى نهاية العام 1954 ، غارقاً حتى أذنية في مشكلة الاحتلال البريطاني لقناة السويس ، وكل همه أن يجلي هذا الاحتلال عن التراب الوطني المصري . كما أن الولايات المتحدة نزلت بثقلها لتحقيق هذا الجلاء ، بينما ظلت قضية اللاجئين الفلسطينيين ظلت مشكلة إنسانية عند عبد الناصر ، حتى ذلك التاريخ . ولم يكن عبد الناصر قد اكتشف ، بعد ، أن واشنطن تريد أن ترث بريطانيا في مصر ، كما لم يكن الرئيس المصري تأكد من العلاقة العضوية الحميمة بين واشنطن وتل أبيب .

إلى أن وقع الاعتداء الذي طفح به كيل شعب القطاع، وهو الاعتداء الذي وقع على بئر الصفا، بضواحي مدينة غزة، مساء 1955/2/28، وراح ضحيته 39 مقاتلًا مصريًا وفلسطينيًا وسودانيًا. واندلعت، صباح اليوم التالي، مظاهرات صاخبة، سرعان ما تحوّلت إلى انتفاضة شعبية عارمة، جعلت من إسقاط **"مشروع سيناء"** الهدف الرئيسي لها. وبعد ثلاثة أيام متصلة من الانتفاضة ، استجاب الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر** لكل مطالب المنتفضين، والتي تمثلت في : إلغاء**"مشروع سيناء"** ؛ تسليح القطاع ،وتحصينه ؛ وإشاعة الحريات الديمقراطية فيه . وكان الرئيس المصري، ليلة العدوان، يتناول العشاء على مائدة السفير الأمريكي الجديد في مصر، هنري بايرود. وقد ألح الرئيس على السفير كي تستجيب الإدارة الأمريكية لطلب السلاح الذي ألح عليه عبد الناصر، على مدى سنتيْن ونصف، بينما جعلت الإدارة الأمريكية أُذنًا من طين والأخرى من عجين!
هنا أدرك **عبد الناصر**، متأخرًا، بأن السلاح سلعة سياسية، وأنه ما كان للولايات المتحدة الأمريكية أن تمده بالسلاح كي يقاتل به ربيبها: الكيان الصهيوني. ومن ثم تأكد لعبد الناصر وجود تلك العلاقة العضوية الحميمة التي تربط ذاك الكيان بالولايات المتحدة. وتصادف أن انعقد **"مؤتمر باندونج"**، في أبريل/نيسان من السنة نفسها، وهناك التقى **عبد الناصر** برئيس الوزراء الصيني، **شو إن لاي**، وطلب الأول منه أسلحة لمصر، اعتذر **لاي** بأن الصين لا تمتلك سلاحاً

*عقدت "وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "اتفاقا مع الحكومة المصرية ،في 1953/6/30 ، قضى بتخصيص 30 مليون دولار لإجراء أبحاث في سيناء وغزة ، وما يتبقى يُستخدم في البناء والتوطين . وفي 1955/6/28 ، تم تخصيص ألف فدان من الشمال الغربي لسيناء ؛ من أجل تحويلها إلى أراض زراعية ،لتوطين اللاجئين المقيمين بقطاع غزة في الأرض المستصلحة (نحو 214000 نسمة) ، وتضمن المشروع 33قرية . و رؤي إبلاغ اللاجئين بأن**" مشروع سيناء "** لا يتعارض مع حقهم في العودة ! مع حرص المعنيين بالمشروع على نفوذ الزعامات التقليدية الفلسطينية . كل ذلك من أجل تقويض الأساس الاقتادي لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين ،في سبيل تصفية تلك المشكلة ، وصولا إلى تسوية الية الفلسطينية برمتها.

_**تقرير حول مشروع شمال غرب سيناء** ، القاهرة ، إعداد المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي في جمهورية مصر ، ووكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفسلطينيين ، يوليو 1955 ؛

- حسين أبو النمل ، **قطاع غزة 1948-1967 :تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية** ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ،مركز الأبحاث ، 1979 ،ص128.

للتصدير، وإن وعد **عبد الناصر** بأن يطلب إلى السوفييت مده بالسلاح المطلوب. وحين عاد **عبد الناصر** إلى القاهرة، وجد السفير السوفييتي، **سولود**، في انتظاره، ليطلب إليه تحديد أنواع وكميات الأسلحة المطلوبة، وقد كان (**صفقة الأسلحة التشيكية**). بعد أن كان **عبد الناصر** شكَّل "**الكتيبة 141**" من الفدائيين الفلسطينيين، ووضع على رأسها **البكباشي** المصري (المقدم) **مصطفى حافظ**، وهي التي هزَّت الكيان الصهيوني بعملياتها الفدائية، التي أودت بحياة نحو 1400 صهيوني، خلال بضعة أسابيع (أبريل-يوليو 1956) .

اعترضت الولايات المتحدة على الصفقة، فرد **عبد الناصر** بعقد صفقة أخرى، ثم اعترف بالصين الشعبية، الأمر الذي كانت واشنطن تؤثِّمه، فسحبت واشنطن عرضها لتمويل "**السد العالي**"، وفي أذيالها فعلت لندن و**البنك الدولي** الأمر نفسه، فرد **عبد الناصر** بتأميم قناة السويس (1956/7/26)، ثم كان "**العدوان الثلاثي**"، الذي دشَّن نهوضًا قوميًا على مدى الوطن العربي، تُوِّج بالوحدة المصرية-السورية(2/22 /1958) ، والثورة الوطنية في العراق(1958/7/14). وبذا تكون انتفاضة مارس/آذار 1955م. في غزة قد عجَّلت _إلى جانب عوامل أخرى_ في تحوُّل **عبد الناصر** عن الولايات المتحدة، إلى الخط القومي التقدمي. ذلك أن الرئيس الراحل اعتمد **التجريب والانتقاء**.

فضلاً عن معارضة الشعب الفلسطيني في قطاع غزة لمشروع التوطين بشتى الطرق فإنه فإنه طيلة 15 عاما من الاحتلال الإسرائيلي الصريح المباشر لسيناء وقطاع غزة معاً (1967-1982)، لم يتحرك فيها مواطن فلسطيني واحد من القطاع إلى صحراء سيناء، التي كانت مفتوحة للجميع، آنذاك، دون أي عقبة .

ناهيك عن أن دخول أبناء قطاع غزة ، عنوة ، من القطاع إلى سيناء، بكسرهم العوائق عند رفح (2008/1/23م.)، لم يترتب عليه بقاء أي منهم في سيناء، بل اكتفوا بشراء ما احتاجوا إليه، وعادوا أدراجهم، بعد أن عانوا الأمرّين من الحصار الذي فرضه نظام **مبارك**، على مدى سنة ونصف السنة ، على القطاع وأهله.

الإضاءة الخامسة :مصر وفلسطين

جاء حين من الدهر ،تدفق فيه أبناء الشعب اليمني إلى صعيد مصر ،نجدة للشعب المصري ضد الحملة الفرنسية *؛وهل يمكن إغفال دور **سليمان الحلبي** ، الذي أقدم على قتل قائد الحملة الفرنسية ، **الجنرال كليبر** ، الذي خلف **بونابارت** ؛ إلى المظاهرات العارمة التي اندلعت في فلسطين ،تضامنًا مع **ثورةعرابي** ،وتنديدًا بالاحتلال البريطاني لمصر (1882)،ثم تضامنًا مع **ثورة المهدي** في السودان.

لقد كان طبيعيًا أن ينسف الاحتلال البريطاني لمصر أرضية الكفاح المشترك من تحت أقدام الحركة الوطنية المصرية ومثيلاتها في المشرق العربي ؛فعدو الأولى غدا صديق الثانية، والعكس صحيح . ما أدار ظهر الأولى للثانية ، و لكن إلى حين.

* د.سيد مصطفى سالم ، **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية في مصر** ،ط2،صنعاء، 1989.

حتى بعد أن استوى الخشب والماء، ووقع المشرق العربي (خاصة فلسطين ، وشرقي الأردن ، والعراق) تحت الاحتلال نفسه (1918) الذي رزح تحته الشعب المصري ، فإن رأس الحركة الوطنية المصرية ، **سعد زغلول باشا** ، دأب

على أن يردد في مجالسه بأن الأقطار العربية ليست إلا مجموعة أصفار ؛ أغلب الظن لأن مصر لم تكن حازت على استقلال حقيقي ،ولأن قدرة بقية الأقطار العربية على تقديم العون لمصر ظلت في نطاق الإمكانية النظرية ، فحسب.

جاء التحرك نحو المشرق العربي من خارج دائرة التوقع ، حيث كان **"حزب الأحرار الدستوريين "** المصري هو الذي رنا ببصره إلى المشرق ، منذ بدء الأزمة الاقتصادية العالمية (1928) ؛ أغلب الظن بحثًا عن أسوق جديدة للقطن المصري ،خاصة وأن هذا الحزب هو ممثل كبار الملاك في مصر،فضلًا عن أن الحزب نفسه سعى لاكتساب شعبية في المشرق ، استعصت عليه في مصر . لذا ، نجد رموزًا من هذا الحزب تشارك في مؤتمرات عديدة من أجل فلسطين ،**كأحمد زكي (شيخ العروبة)، ومحمود علي علوبة باشا.**

إلى أن اندلعت ثورة 36 _1939 الوطنية الفلسطينية ، التي نزلت **"الإخوان"** بثقلها تضامنًا مع تلك الثورة ، ما نقل **"الإخوان "** من المجال الخيري إلى الميدان السياسي . تمامًا كما نقلت حرب48 مع إسرائيل الجماعة إلى المجال العسكري.

هلى يمكن أن ننسى مواقف رئيس الوفد ، **مصطفى النحاس باشا**،رئيس وزراء مصر ،في إضراب الستة أشهر الفلسطيني الشهير حين رفض النحاس طلب الانجليز إرسال عمال مصريين ، للحلول محل العمال الفلسطينيين المضربين ،فأرسل أمير شرقي الأردن ، **عبدالله بن الحسين** ، العمال المطلوبين إلى فلسطين . أما الموقف الثاني فكان حين رفض **النحاس** التوقيع على"نداء الملوك والأمراء العرب "إلى شعب فلسطين كي يوقف إضرابه السياسي "اعتمادًا على حُسن نوايا صديقتنا بريطانيا " !وهو النداء الذي كتب نصه المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، وطلب منه **الأمير عبد الله** بأن يطوف بالنداء على حكام العرب ، لأخذ تواقيعهم عليه ، حتى يبدو وكأنه الصادر عنهم .أما الموقف الثالث ، فتمثل في انزعاج النحاس من توصيات **"لجنة بيل"** الملكية البريطانية (1937/7/7)، التي أوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والانجليز . والتقى **النحاس** السفير البريطاني في مصر ، **مايلز لمبسون** ، وأبلغه بأن مصر لن تأمن على نفسها، وعلى كتفها الأيمن دولة يهودية . ورد الطاغية الشهير، **اسماعيل صدقي باشا** ، من خارج سدَّة الحكم :"وماذا يضير مصرأن تقوم مثل تلك الدولة ؟!"ولم يكن هذا الموقف غريبًا على **صدقي** ،المعادي أصلًا لقضية بلاده الوطنية ، وهوالعضو في مجلس إدارة 12 شركة صهيونية في مصر.

حين التهبت القضية الفلسطينية ، بصدور قرار تقسيم فلسطين عن **الأمم المتحدة** (1947/11/29) ، كانت حكومة **محمود فهمي النقراشي باشا** ، الوحيدة بين الحكومات العربية التي رفضت إرسال قواتها المسلحة إلى فلسطين، والاكتفاء بمرابطة تلك القوات على حدود مصر مع فلسطين، الأمر الذي رفضه **الملك فاروق** ، وقد أطلق لحيته وهيأ نفسه خليفة للمسلمين ، بينما عدم مشاركة الجيش المصرى تلك تضعف فرص الملك في الخلافة .

في فلسطين ، نضجت فكرة الإطاحة بالنظام الملكي المصري في رؤوس من شكلوا **"الضباط الأحرار"** ،لاحقًا ،بعد أن تأكد مدى فساد ذاك النظام .

اللافت أن **مصر النقراشي** كانت الدولة الوحيدة التي منعت دخول المهاجرين الفلسطينيين إلى أراضيها (1948) ، وحشرت من وصل منهم في الحجْر الصحي. وبعد ضغوط من المهاجرين المحجوزين ، ومن قوى وطنية مصرية ،سمح **النقراشي** لكل من يمتلك عشرة آلاف جنيه فلسطيني (مرادف للاسترليني) بالدخول إلى مصر ، واتبعه بقرار آخر ، شدد على عدم تشغيل الفلسطينيين ، حتى بدون أجر. الأمر الذي شطبه **عبد الناصر** (1954) بمساواته الفلسطيني بالمواطن المصري عدا الترشيح والانتخاب . وتبعته سوريا (1956) ، ما جعل **الجامعة العربية** تتحرك ، بعد نحو عقد من قرار **عبد الناصر** ، متمنية على الدول العربية أن تحذوا حذو مصر وسوريا في هذا الصدد.

أضف إلى ذلك، **"الكتيبة 141فدائيين"**، ، ما ألحقته بالعدو ،في خلال فترة قصيرة وهي الكتيبة التي شكلها **عبد الناصر** ، بقيادة **البكباشي (المقدم)مطفى حافظ** ، وضمت نحو 900 فدائي فلسطيني ، وأوقعت زهاء 1400 قتيل في صفوف الإسرائيليين ، خلال بضعة أسابيع (أبريل – يوليو 1956) .

إلى الحديث المهم **لعبد الناصر** في أعضاء المجلس التشريعي لقطاع غزة (1962/6/22)، الذي قطع لهم بأنه – هو أو أي حاكم عربي _لا يمتلكون استراتيجية لتحرير فلسطين . فكان هذا الخطاب إشارة البدء في تأسيس الفصائل الفدائية الفلسطينية ، التي زاد عددها على الثلاثين ، بعد أقل من عام على هذا التصريح ، بعد أن كانت محددات أخرى تضافرت ، توَّجها **عبد الناصر** بحديثه الفاصل ذاك . كما فاجأ **عبد الناصر** الجميع بدعوته إلى قمة عربية ، في خطاب ألقاه (1963/12/23) ، لمواجهة خطوات إسرائيل في سبيل تحويل مجرى نهر الأردن . ورغم الاختلافات العميقة المستبدة بالصف الرسمي العربي ، فإن كل حكام العرب توافدوا إلى القاهرة وعقدوا قمتهم الأولى فيها، في 1964/1/13 ، والتي هدف **عبد الناصر** من ورائها إلى إحياء الكيان السياسي الفلسطيني . وانتهى الأمر ، كما هو معروف ، بظهور **"منظمة التحرير الفلسطينية"** ، بعد نجاح **أحمد الشقيري** في عقد **المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول** ، في مدينة القدس (1964 / 6/2-5/28)

في العام 1964، ارتفع منسوب الرسوم الجامعية في مصر فانطلق أعضاء الهيئة الإدارية **لاتحاد طلبة فلسطين** في القاهرة ، إلى قصر عابدين ، قاصدين لقاء **عبد الناصر** ، لكن الموظفين هناك طلبوا إليهم كتابة ما يريدون ، وقد فعلوا ، فاستجاب لهم **عبد الناصر** ، من فوره ، ما جعل أحد المقربين إليه يأخذ عليه بأنه "يدلِّع الفلسطينيين! " فرد **عبد الناصر** ، من فوره :"ياما حيعانوا من بعدي " ! وقد صدق توقعه .

سادس الإضاءات: "التطبيع"

" التطبيع " يعني، لغويًا، افتعال علاقة طبيعية بين طرفيْن، استحال جعلها طبيعية. ولأن "التطبيع" مع مصر لم يتم، كما يحلو للصهاينة، لذا نجدهم وقد حرصوا على **"التطبيع" قبل التوقيع** على أي معاهدة صلح مع أي طرف عربي.

يهدف الكيان بـ"التطبيع" إلى جعل وجود السرطان الصهيوني في الجسم العربي أمرًا طبيعيًا.

أما القول بأننا "لسنا فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين"، الذين "طبَّعوا" مع الصهاينة، فمردود عليه بأن **"اتفاق أوسلو"** سيء الصيت تم بأقلية ضئيلة من الفلسطينيين، وحين أراد بعضهم أن يتراجع، عاجلوه بالقتل، ولعل عرفات خير دليل على ذلك.

"المطبِّعون" بين ظهرانينا يتوزعون هم ما بين **رأسمالي جشع**، أو **سمسار َنِهم**، لا يهمهما إلا ما يجنيناه من مال، بغض النظر عن مصدره. إلى جانب **مَن بهرته نجاحات الصهيونية**، أو **مَن يبحث عن دور**، بأي ثمن؛ أو مَن **سكنته الهزيمة**، فضبعه* الأعداء، أو من **فقد حسه الوطني**، فتساوى عنده العدو بالشقيق والصديق.

يزعم "المطبِّعون" بأن إقامة علاقة طيبة مع عدو الأمة من شأنها أن تجنبنا ويلات الحروب؛ وأن تساند "معسكر السلام" في الكيان الصهيوني؛ وأن تحرج اليمين الصهيوني؛ ومعه الكيان أمام الرأي العام العالمي؛ وتظهرنا في صورة الحضاريين؛ بينما لم يأت لنا "التطبيع" على الضيِّق إلا بالمبيدات المسرطنة، والمزيد من المخدرات، والجواسيس...إلخ.

---

*يحدث أن يصادف أحدهم ضبعًا، يدور الأخير حول الأول، وينفث روائح نفَّاذة، فيُصاب صاحبنا بحالة، نسميها "انضبع"، فيتبع الضبع إلى وكره، صاغرًا، ولا يصحو المضبوع إلا إذا اصطدمت جبهته بمدخل الوكر، وسال دمه. ومن هنا يحلو للبعض أن يسمي "التطبيع" "تضبيعًا" أو "تتبيعًا" ، من التبعية .

الفصل الثاني

الحركة الوطنية الفلسطينية

دأبت مطبوعات "فتح" على الزعم بأن "الثورة الفلسطينية انطلقت في 1965/1/1"، مما أعطى انطباعًا كاذبًا ، وكأن الشعب الفلسطيني كان نائمًا في الطراوة، حتى التاريخ المذكور. فيما عاش ذاك الشعب في ثورة مستمرة ، في تقطع ، ضد الاحتلال البريطاني والمشروع الصهيوني، منذ احتل البريطانيون فلسطين، واجتزاؤوها من الجسم السوري (1918).

خلفية تاريخية

لأربعة قرون عجاف (1516-1918) رزحت فلسطين –ضمن ولاية سوريا- تحت الحكم العثماني، مما أسلمها إلى التخلف الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والثقافي؛ وتسبب في حركة استقلالية (ضاهر العمر) [1737- 1770م.]، وفجَّر عدة هبَّات فلاحية ضد استبداد الولاة العثمانيين والملتزمين المحليين . كما غزت حملتان عسكريتان سوريا، أولاهما **(الفرنسية)**، التي أخفقت في تحقيق هدفها (1799)، أما الثانية، فهي **حملة إبراهيم باشا** المصرية، التي نجحت في البقاء في سوريا، ثماني سنوات متصلة (1832-1840)، قبل أن تتكاثر عليها الدول الغربية وتخرجها ،عنوة، من هناك.

حين بدأ الاستيطان اليهودي، في السنة التي بدأ الاحتلال البريطاني لمصر (1882)، تصدى للاستيطان الشعب الفلسطيني، بالهجمات المسلحة، والدعائية، والبرلمانية.

ما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى (1914)، حتى قطع الاستعمار البريطاني على نفسه ثلاثة عهود متعارضة : أولها للاستعمار الفرنسي **(معاهدة سايكس - بيكو)**، باقتسام الولايات العثمانية فيما بينهما؛ وثاني العهود كان **للحسين بن علي**، شريف مكة، بمنح تلك الولايات الاستقلال **(مراسلات حسين – مكماهون)**؛ وثالث العهود للحركة الصهيونية بمنحها فلسطين **(وعد بلفور)**. معروف بأن بريطانيا نفذت وعدها الأول ، على مضض؛ والثالث بسعادة، أما الثاني فلم تفِ به، مع سبق الإصرار و الترصد .

المرحلة الأولى:

جُرحت الكرامة الوطنية بالاحتلال البريطاني، وفزع الشعب الفلسطيني من المشروع الصهيوني. بينما كان لكل طبقة وفئة اجتماعية أسبابها الإضافية للسخط. فالفلاحون تأذوا كثيرًا من سلب الأراضي من بين أيديهم، ورفْع الانتداب لأسعار البذور، وهبوطه بأسعار المحاصيل. فيما تضرّر العمال من الهجرة اليهودية، التي اقترنت بطرد العمال العرب من العمل، لصالح العمال الوافدين، بسلاحيْ **"العمل العبري"**، و**"احتلال العمل"**. واستاء الرأسمالي العربي من

تحيُّز الانتداب للصهاينة، في توفير المواد الخام، وتسويق البضائع للرأسماليين الصهاينة، فضلاً عن توفير الحماية الجمركية لبضائعهم. وغضب المثقفون من تكبيل تعليم العرب الفلسطينيين وتضييقه، فضلاً عن حرمان المثقفين من الوظائف العليا لحساب الصهاينة، وقد احتل العرب ثلث مجموع وظائف الحكومة، لقاء ثلثيْ تلك الوظائف للصهاينة، بينما لم تصل نسبة الأخيرين إلى ثلث مجموع السكان (1947)!

في البداية، شكَّل الشعب الفلسطيني **"الجمعيات الإسلامية – المسيحية"**، لقيادة الكفاح الوطني، وهي التي عقدت سبعة مؤتمرات وطنية، حتى العام 1928، واقتصر الكفاح هنا على المذكرات، والمؤتمرات، والوفود، إلى لندن حينًا، وإلى **المندوب السامي البريطاني** في القدس، أحيانًا.

إذا كانت هذه الأساليب الكفاحية المتواضعة قد فرضها كبار الملاك، الذين احتكروا قيادة الحركة الوطنية، على مدى المرحلة الأولى من الحركة الوطنية (1918 – 1929)، فإن الشعب الفلسطيني تفلَّت من تلك القيادة، غير مرة؛ أولاها حين اصطدم الفلسطينيون في القدس، في مناسبة **موسم "النبي موسى"** (أبريل / نيسان 1920)، بالمستوطنين الصهاينة. وتلتها صدامات يافا (1921/5/1). ثم صدامات **"عيد إستر"** (المعروف بعيد المساخر)، في مارس/ آذار 1924، حين ارتدى بعض المستوطنين في احتفالهم هذا ملابس رجال الدين الإسلامي، من باب الاستهزاء. واخُتتمت المرحلة الأولى **بهبَّة البراق**، صيف 1929، حين هتف المستوطنون، بالقرب من **"حائط البراق"**، بأن "الحائط حائطنا" ! إذ زعموا بأن ذلك الحائط هو ما تبقى من قصر **سليمان بن داود**، لذا أطلقوا عليه اسم **"حائط المبكى"**، فاصطدموا بالمسلمين، وانتشرت الهبَّة في كل من القدس، والخليل، وصفد، ويافا، لمدة أسبوعيْن متصليْن، وسقط فيها أضعاف ما سقط في الصدامات الثلاثة السابقة، من قتلى وجرحى. وفي هذه الهبَّة تأكد لأبناء الشعب الفلسطيني، أولاً، مدى عقم الأساليب الكفاحية التي فرضها عليهم كبار الملاَّك (مؤتمرات ، مذكرات ، ووفود) ؛ وثانيًا، مدى تحيُّز الانجليز للصهاينة، بينما استمرأ كبار الملاك الاحتكام للانجليز في خلاف أولئك الملاك مع اليهود، كدين.

المرحلة الثانية

في وقت شبَّت البرجوازية عن الطوق، وتجلى ذلك بتشكيلها البنوك، وعقدها المؤتمرات للمرأة، والطلبة، والصحفيين، والتجار. فضلاً عن استقواء تلك البرجوازية بالعمال والفلاحين، ففرضت برنامجها السياسي على المرحلة الثانية من الحركة الوطنية (1930 – 1939). كما أسست أحزابها السياسية الستة **(مؤتمر الشباب/ الاستقلال / العربي / الدفاع / الكتلة الوطنية/ و الإصلاح).**

غني عن القول بأن ثورية البرجوازية، آنذاك، إنما عادت إلى: وقوع البرجوازية تحت نير مزدوج (الانجليز والصهاينة)، وعدم ارتباطها بالسوق الرأسمالية العالمية، ورغبتها المحمومة للانفراد بسوقها المحلية، وأخيرًا لفتوتها.

لقد أخلى برنامج كبار الملاك موقعه لبرنامج البرجوازية، الذي اعتمد أساليب كفاح صدامية، واعتبر الاحتلال البريطاني "أُس البلاء"، والصهاينة مجرد ذيْل له. فاندلعت انتفاضة

أكتوبر / تشرين الأول 1933، بعد ارتفاع منسوب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مع وصول النازي إلى الحكم في ألمانيا ، مطلع العام المذكور. لكن ارتفاع معدلات الشهداء والجرحى العرب هنا، أربكت البرجوازية، ما أفسح في المجال للشيخ **عز الدين القسَّام**، السوري، الذي لجأ إلى فلسطين مفلتًا من حكم بالإعدام أصدرته ضده سلطات الاحتلال الفرنسي في سوريا، لمشاركته في الثورة هناك. وفي فلسطين عمد **القسَّام** إلى تشكيل تنظيم مسلح سري، عماده العمال والفلاحين، وتحيَّن **القسام** استكمال نضاله التحضيري، بتجنيد المزيد من العناصر، وتسليحهم، وتدريبهم؛ فضلاً عن تحيُّنه **"اللحظة الثورية"**، التي واتته، حين انفرط برميل أسمنت ، في ميناء يافا(أواسط أكتوبر 1935) ،كان مرسلًا للصهاينة في تل أبيب ، فإذا به محشو بالبنادق، ما أشعل الإضراب السياسي في فلسطين، ورفع منسوب السخط الشعبي، في وقت فقدت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية القدرة على الحركة، وانشقت الحركة الصهيونية على نفسها **(حركة جابو تنسكي)**، وارتبك الانتداب البريطاني مع احتلال إيطاليا للحبشة، ناهيك عن تلهف الشعب الفلسطيني لمنحى نضالي جديد مُجدٍ.

خرج **القسام** مع كوكبة من رفاقه إلى أحراش يعبد(1935/11/12) ، حيث الأرض الوعرة، والقبضة الأمنية البريطانية الرخوة، والفلاحين الأشد حنقًا على الاحتلال والصهيونية. وقبل أن يستقر القسام ورفاقه، عمد أحد هؤلاء الرفاق إلى قتل شرطي صهيوني، فكشف موقع **القسام** وصحبه، ما سهَّل على المحتلين البريطانيين قتلهم، قبل أن تأخذ **"البؤرة الثورية"** فرصتها.

على أن **"حركة القسام"** لم تُغتل ، دون أن تترك بصمتها على مسار الحركة الوطنية الفلسطينية، حتى إنه يمكن القول بأن الحركة الأولى كانت البروفة الأخيرة لثورة 1936 الوطنية الفلسطينية. ففي 1936/4/15، هاجمت وحدة قسَّامية قافلة سيارات صهيونية، في منطقة المثلث، وقتلت بعض ركابها، ورد المستوطنون بقتل بعض الفلسطينيين في يافا، وتوالت ردود فعل الجانبين، تُوِّجت بإعلان الإضراب السياسي، أولاً في يافا (4/20)، ومنها انتقلت شرارة الإضراب إلى أرجاء فلسطين. وبعد خمسة أيام، إئتلفت الأحزاب الفلسطينية الست في **"اللجنة العربية العليا"**، التي ترأسها رئيس **"المجلس الإسلامي الأعلى"، مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني.** وسرعان ما تشكَّل **"الحرس الوطني"**، و**"اللجان القومية"** في شتى المدن. وفي 5/16، أُعلن العصيان العام، في حين أشعل الفلاحون شرارة الكفاح المسلح. وشددت حكومة الانتداب من إجراءاتها التعسفية، وضاعفت قواتها إلى 20,000 جندي، و5,000 شرطي، و15,000 مقاتل صهيوني.

تحركت القوى العربية الحاكمة المهاودة للإنجليز، فجاء وزير خارجية العراق، **نوري السعيد** (1936/8م.) ليساوم على وقف الإضراب مقابل وعد انجليزي بوقف الهجرة، إلا أن الحكومة البريطانية خذلت السعيد. بعدها طلب المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى **عبد الله بن الحسين**، أمير شرقي الأردن، **وعبد العزيز آل سعود**، ملك العربية السعودية، التدخل لتصفية الثورة، فسارعا ، مع **غازي**، ملك العراق، و**يحيي**، إمام اليمن، إلى إصدار **"نداء الملوك والأمراء العرب"** إلى أبنائهم عرب فلسطين، كي يوقفوا إضرابهم "اعتمادًا على حُسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية"!. والغريب أن المندوب السامي البريطاني هو الذي كتب نص هذا النداء ، وإن كان الملك عبد العزيز قد شطب كلمة "حليفتنا" ، وأحل مكانها "صديقتنا"!

رحبت القيادة التقليدية الفلسطينية بالنداء، فطلبت إلى الجماهير الفلسطينية وقف إضرابها. وبذا انتهى أطول إضراب سياسي في تاريخ البشرية (4/20 – 1936/10/12).

وصلت **"لجنة بيل"** الملكية البريطانية ، إلى فلسطين ، مطلع 1937م.، بذريعة التحقيق في أسباب الثورة. وكأن بريطانيا ليست من صنع هذه الأسباب . وفي 1937/7/7م.، أصدرت **"لجنة بيل "** توصيتها بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. فتجددت الأعمال المسلحة، وردت حكومة الانتداب باعتقال معظم قيادات الثورة ونشطائها، مطلع أكتوبر / تشرين الأول 1937م.، وإن أفلت **الحسيني** إلى لبنان . وعززت حكومة الانتداب قواتها ،ولكن بعد أن سحبت مشروع التقسيم ، تحت ضغط الثورة ، التي استمرت في الصعود.

مع ظهور سُحب الحرب العالمية الثانية في الأفق، سارعت بريطانيا إلى عقد **"مؤتمر لندن"** (فبراير – مارس 1939)، وفيه جمعت الحكومات العربية وعرب فلسطين مع **"الوكالة اليهودية"** ، دون جدوى، ما اضطر بريطانيا إلى إصدار **"الكتاب الأبيض"**، في مايو/ آيار 1939، وفيه تعهدت بمنح فلسطين الاستقلال ، بعد عشر سنوات. وحظر الهجرة اليهودية إليها ، ومنع انتقال الأراضي إلى المستوطنين، بعد خمس سنوات. ورفض الفلسطينيون والصهاينة هذا الكتاب. فشددت القوات البريطانية من قمعها؛ ليختل ميزان القوى لغير صالح الفلسطينيين. ما هوى برايات الثورة، بعد استشهاد أكثر من 5,000 عربي، منهم 112 نُفذ فيهم حكم الإعدام. كما بلغ عدد الجرحى العرب نحو 15,000، والمعتقلين نحو 9,000، وهدمت سلطات الانتداب ما يربو على خمسة آلاف منزل عربي.

المرحلة الثالثة

هنا انتقلت الحركة الوطنية إلى مرحلتها الثالثة، وقد تأكدت نسبة من الرأسماليين الفلسطينيين من عقم الصدام مع الامبريالية، فمالت الأولى لمهادنتها، وأدى اضطرار الإنجليز للاعتماد على الصناعة العربية الفلسطينية، لتلبية احتياجات القوات البريطانية المرابطة في فلسطين، إلى تعزيز تلك المهادنة، واتساع دائرة الطبقتين، البرجوازية والعمالية، خاصة مع ازدياد عدد المعسكرات البريطانية في فلسطين . كما أدى تشكُّل **"المعسكر الاشتراكي"**، غداة الحرب العالمية الثانية، إلى هروب البرجوازية في اتجاه اليمين، أكثر فأكثر.

في السنتيْن الأخيرتيْن من تلك الحرب، أخذت الدماء تتدفق في شرايين الحركة الوطنية، مع الإفراج عن قياداتها، وارتفاع منسوب الإرهاب الصهيوني. وشكَّل **موسى العلمي***، عند عودته من منفاه، **"المكتب العربي"** – بدعم من حكومة العراق – بهدف الدعاية للقضية الفلسطينية،

في واشنطن ولندن، مع وعيه بأن القضية ستُحل في الأولى، وتوهمه أن باستطاعته تخليصها من النفوذ الصهيوني! وكانت الحركة الصهيونية قد نقلت مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن، غداة **"مؤتمر بلتيمور"** (مايو/ آيار 1943)، بمجرد أن أحست الحركة بأن بريطانيا أخلت موقع رأس المعسكر الامبريالي للولايات المتحدة؛ التي ازدادت قوة، خلال سني الحرب، على حساب كل من بريطانيا وفرنسا. ما جعل الولايات المتحدة تحث خطاها لوراثة هاتيْن

***موسى العلمي** (1879 _ 1984) : سياسي عربي فلسطيني ، مُعجب بالغرب ، اتفق مع المسؤول البريطاني ، نيوكمب (1943) على صيغة ، عاد العلمي بموجبها إلى فلسطين من العراق ، ودعمته حكومة

العراق في تأسيس "المشروع الإنشائي العربي " ؛ بهدف انقاذ أراضي فلسطين ، و"المكتب العربي" ؛ بهدف "تحرير الغرب من النفوذ الصهيوني" ! وأعلن العلمي ثقته بأن "قضيتنا ستُحلفي واشنطن" ! .

الدولتيْن في مستعمراتهما. واعتمدت الأحزاب والبرلمان في الولايات المتحدة خط تبني الحركة الصهيونية، فطالبت تلك الأحزاب ومجلس الشيوخ والنواب بفتح باب هجرة اليهود إلى فلسطين، والتعجيل بإقامة دولة يهودية فيها. ورضخت حكومة لندن لضغوط واشنطن. فتشكلت **"اللجنة الأنجلو- أمريكية"**، ربيع 1946، ووصلت إلى فلسطين، وأصدرت توصياتها بإدخال مئة ألف يهودي إلى فلسطين، وتسهيل انتقال الأراضي للمستوطنين، الأمر الذي رفضته الخارجية البريطانية، خشية انتقال فلسطين للنفوذ الأمريكي. فصعَّدت العصابات الصهيونية هجماتها المسلحة ضد البريطانيين.

نظمت الحكومة البريطانية **"مؤتمر لندن الثاني"**، أواخر 1946 وأوائل 1947، إلا أنه فشل في إيجاد حل للقضية. فعمد وزير الخارجية، **إرنست بيفن**، إلى تحويل القضية للجمعية العمومية للأمم المتحدة، لتصوُّره بأنها ستفشل في اتخاذ قرار بشأن تلك القضية، بسبب التوازن الحرج داخل الجمعية العمومية، بين السوفييت والأمريكان، بينما يتطلب أيْ حل ثلثيْ مجموع أصوات أعضاء تلك الجمعية. وانتهى الأمر بتشكيل لجنة دولية، طافت بفلسطين والدول العربية، وأوصت أغلبية أعضاء اللجنة بتقسيم فلسطين. وكانت المفاجأة، أن الأمم المتحدة أقرت هذه التوصية، بعد أن انسحب المندوب البريطاني من الجلسة، وفاجأ السوفييت الجميع بموافقتهم على التقسيم (1947/11/29).

اندلعت الاشتباكات المسلحة بين العرب الفلسطينيين والعصابات الصهيونية. وأحرز المقاتلون الفلسطينيون تقدمًا ملحوظًا، اضطر معه المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة، **وارن أوستن**، أواسط مارس/آذار 1948، إلى طلب إلغاء التقسيم، ليحمي الصهاينة من الانهيار، فعمد هؤلاء إلى تنظيم مذابح ضد العرب الفلسطينيين، أشهرها **دير ياسين** (1948/4/9)، في محاولة شرسة لتعديل ميزان القوى لصالح الصهاينة.

هزيمة فنكبة

في 1948/5/15 ، أكملت القوات البريطانية انسحابها من فلسطين، بعد أن كانت الحركة الصهيونية أعلنت عن قيام دولتها، قبل ذلك بعدة ساعات. ودخلت الجيوش العربية لنجدة شعب فلسطين، وإذا كان المقاتلون الفلسطينيون احتفظوا بنحو 82% من مجموع أرض فلسطين، فإن الجيوش العربية تلقت هزيمة نكراء، فانقلب الوضع، حتى سيطر الصهاينة على 78% من أرض فلسطين. فلماذا تمت الهزيمة؟!

بالنسبة للمقاتلين الفلسطينيين، جاء شحّ السلاح والذخيرة وقلة التدريب، ومن بعده ثمة وهن البنية الاقتصادية الاجتماعية الفلسطينية، وضعف التنظيم، وافتقاد الجبهة المتحدة.

أما الجيوش العربية، فعدا عن الأسباب نفسها، نراها اجتهدت لسحب أسلحة المقاتلين الفلسطينيين، ومن رفض منهم أودعته السجن، بدل أن تستعين الجيوش العربية بأولئك المقاتلين _ الأدرى بالأرض وبأساليب القتال الأكثر جدوى ضد الصهاينة _ وهي التي رزحت حكوماتها تحت نفوذ الامبريالية (البريطانية أو الفرنسية)، إضافة إلى فساد تلك الحكومات، و جهل

المقاتلين بالأرض، وبالهدف الذي تقاتل من أجله تلك الجيوش، والقهر الطبقي داخلها، وتنافرها عن بعضها البعض، وقيام خمس قيادات عسكرية عربية ، مقابل جيش إسرائيلي موحد، تحت قيادة واحدة ، مسلح ومدرب جيدًا، وملم بطبيعة الأرض، وبالهدف الذي يقاتل من أجله، ناهيك عن تفوقه على مجموع الجيوش العربية المهاجمة ، بنحو ثلاثة أضعاف ، عدا ثلاثة أضعاف أخرى من الاحتياطي .

عكست النكبة نفسها في تقويض كل البنى الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية،والثقافية ، والنقابية الفلسطينية، فيما عدا **"عصبة التحرر الوطني"** الماركسية. واستبدت البطالة، والأمراض، والقمع باللاجئين. واستجدت فروع **للبعث والقوميين العرب،** في الضفة الغربية وقطاع غزة، حملت عبء الكفاح الوطني، إلى جانب اليساريين.

فيما بين فبراير ويوليو 1949، وقَّعت حكومات **"دول الطوق*"** – كل على حدة- اتفاقات هدنة مع الكيان الصهيوني.

مع هذا استمر الشعب الفلسطيني يقاوم ، بشتى أساليب الكفاح السياسي؛ لملء الفراغ الذي تخلَّف عن انهيار القيادة السياسية الفلسطينية ، ولقبر مشاريع التوطين ، وإسقاط الأحلاف الاستعمارية، إلى الكفاح المسلح؛ حتى أن **جولدا مئير،** رئيسة وزراء الكيان، قررت (1970) بأن الإسرائيليين لم يعرفوا السلام على حدودهم، باستثناء حدودهم مع لبنان. ففيما بين توقيع اتفاقيات الهدنة ووقوع **"العدوان الثلاثي"،** وقعت نحو 11,650 حادثة مسلحة، منها 7,850 من الضفة، ونحو 3,000 من القطاع، و600 من سوريا، وحوالي المئتيْن من لبنان. وفيما بين سنتيْ 54و 1955م.. أدانت المحاكم الأردنية نحو ألف فلسطيني بتهمة "التسلل" إلى وطنهم المحتل، عدا عدد كبير ممن صدرت ضدهم أحكام مختلفة مع وقف التنفيذ، وأقصت الحكومة مخاتير (عُمَد) عن مناصبهم ، بتهمة تسترهم على "متسللين".

لقد بدأ الفلسطينيون بالدخول سرًا إلى بلادهم؛ لرغبتهم في العودة، أو انتقاء ما يلزمهم من أثاثهم، وعندما واجهتهم أسلحة الإسرائيليين، اضطروا إلى حمل السلاح، فكانت الاشتباكات. ورفض الكيان اقتراحًا لحكومة الأردن بتشكيل دوريات عسكرية مشتركة ، على طول الحدود بين البلديْن. فشكلت تلك الحكومة **"الحرس الوطني"،** لامتصاص النقمة الشعبية، وإن جردت أفراده من الذخيرة، ما جعلهم فريسة سهلة وثمينة للعدو. ومنذ 1953، أخلى "التسلل" الفردي موقعه للأعمال العسكرية المنظمة، انطلاقًا من سوريا، ثم مصر. وكبَّلت **"دول الطوق"** الفلسطينيين بالمزيد من القيود. وما من انقلاب عسكري عربي إلا وتذرّع بتحرير فلسطين. وهكذا تحّولت فلسطين إلى دجاجة تبيض ذهبًا لأغلب الأنظمة العربية. وفغرت السجون العربية أفواهها ، لتلتهم أعضاء الأحزاب الوطنية الفلسطينية ، الذين حفظ نضالهم وتضحياتهم القضية حية متوهجة.

***دول الطوق:** مصطلح نحته المفكر العروبي الفلسطيني المعروف ، عبد الله الريماوي ، وقصد به الدول المحيطة بإسرائيل (مصر ،والأردن، وسوريا ،ولبنان) .

ولادة المقاومة

حالت قيود الدول العربية ، وضعف التكوين الاقتصادي_الاجتماعي الفلسطيني ، دون تبلوُّر مقاومة مسلحة منظمة، لأكثر من عشر سنوات من النكبة. وبعدها استرد الاقتصاد الفلسطيني عافيته، اعتمادًا على ما ضخّه العاملون الفلسطينيون في دول الخليج من أموال . فيما أعطى

النهوض القومي في الوطن العربي (1955- 1959) دفعة للنضال الوطني الفلسطيني ، أما استعار الخلافات الرسمية العربية ، فقد وفر أكثر من شرخ في جدار المنع الرسمي العربي. كما أن انفصال مصر عن سوريا (1961/9/28) أدى إلى قلب الشعار الذي كان سائدًا **"الوحدة طريق تحرير فلسطين"**، إلى **"تحرير فلسطين طريق الوحدة".**

دوليًا، أدى اشتداد ساعد **"المعسكر الاشتراكي"**، وحركات التحرر الوطني العالمية إلى توفير المناخ لولادة المقاومة المسلحة الفلسطينية، خاصة بعد انتصار **دين بيان فو** في فيتنام (1954)، وثورة كوبا (1959)، والجزائر (1962)، التي أكدت جميعها مدى مضاء سلاح حرب التحرير الشعبية.

بعد انتصار ثورة الجزائر (ربيع 1962)، توالت خطب رئيس وزراء سوريا، **نبيه العظمة، والملك سعود**، والرئيس الجزائري **أحمد بن بيلا، وجمال عبد الناصر**، وكلها حثت الشعب الفلسطيني على أن يأخذ قضيته الوطنية بين يديه، لينجز التحرير.

لذا، ما أن هل العام 1963م.، حتى كانت نحو ثلاثين منظمة فدائية فلسطينية قد تأسست، معظمها لم يتعد اللافتة، وإن كان هذا العدد الكبير عكس مدى تعطُّش الشعب الفلسطيني لأخذ قضيته الوطنية بين يديه. وأفزع هذا التعطش الأنظمة العربية، فاتفقت على **تشكيل "منظمة التحرير الفلسطينية"** (مايو 1964) في تلبية الطموح الوطني الفلسطيني إلى الكيان ، وتعليق أمر التصدي لتحويل إسرائيل مجرى نهر الأردن على مشجب فلسطيني، ولاحتواء العمل الفدائي، خشية توريط الأنظمة العربية في حرب لا تريدها مع الكيان الصهيوني.

كفاح عرب 48:

في الكيان الصهيوني، استمر كفاح العرب ضد شتى صنوف العسف الصهيوني.

لقد تحول نحو 150 ألف فلسطيني إلى أقلية مضطهدة، وغدا **الحزب الشيوعي** حزب هذه الأقلية، وليس حزب الطبقة العاملة. لقد صادرت حكومة الكيان ثلاثة أرباع أراضي العرب. الذين بقوا في بلادهم . وعبَّر تشوُّه البنية الاجتماعية العربية عن نفسه ، في التراجع المطرد للمنخرطين في العمل المنتج لحساب العمل الأسود المضني، ذي الأجر المتدني، الذي ينقص الربع عن نظيره اليهودي، ما هبط بنسبة غير قليلة من العرب هناك إلى ما تحت خط الفقر، وعانت تلك النسبة من الضائقة السكنية، خاصة وأن ربع مليون عربي هناك انتُزِعوا من مسقط رأسهم، فغدوا **لاجئين في وطنهم**.

مع غياب الأراضي، غدا التعليم سلاحًاورأسمالًا، في آن؛ فنصبت حكومة الكيان العقبات الكأداء أمام تعليمهم، واستبدت البطالة بالجامعيين منهم. ما زاد من صمود الفلسطينيين هناك،

وعمَّق إحساسهم بهويتهم القومية، وتوقهم إلى الديمقراطية والمساواة، ومع كل نهوض عربي كان الكفاح يتحول في اتجاه تحقيق أمل التحرير.

في سياق النهوض القومي، إئتلف التياران ، اليساري والقومي ، في **"الجبهة الشعبية"**، سنة 1958.. على أن هذا الإئتلاف سرعان ما انفرط عقده ، بعد نحو عام، مع اشتداد الصراع بين التياريْن ، على مدى الوطن العربي، منذ خريف 1958، مع انفجار الصراع بين الرئيسيْن ، المصري **عبد الناصر**، والعراقي **عبد الكريم قاسم**. فخرج التيار القومي، مُشكلاً **"حركة الأرض"**، لكن السلطات الصهيونية عاجلتها بقرار الحظر، وتعرض قادتها للملاحقة ، وتحديد الإقامة ، و الاعتقال.

مع ظهور **"منظمة التحرير الفلسطينية"** (1964) والفصائل الفدائية ، (في السنة التالية) ، انتعش أمل عرب 48 بتحرير فلسطين. لكن الهزيمة العربية في حرب 1967، خيَّب أملهم، فانكفأوا يسعون للمساواة ، من جديد. على أن الانتصار العربي الجزئي في حرب 1973، عاد فأنعش تلك الآمال، التي سرعان ما خابت ، مع إقدام **السادات** على الصلح مع إسرائيل (خريف 1977م.)، الأمر الذي تعزّز مع خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان(1982) ، ونزل عرب 48 بثقلهم وراء أشقائهم في الضفة والقطاع ،حين اندلعت هناك انتفاضة 1987. على أن**"اتفاق أوسلو"** سيء الصيت وجّه لطمة مؤلمة لعرب 48، إذ اعتبرهم **"عرب إسرائيل"**، متنازلاً عنهم لحساب العدو. فنشطت محاولات " **الأسرلة** "، لكن الرد كان في صعود التيارين ، القومي والإسلامي.

تداعيات هزيمة 1967

أوقعت هزيمة 1967 الضفة والقطاع، والجولان السوري، وسيناء المصرية، تحت الاحتلال الإسرائيلي. وأخفقت محاولة **"فتح"** تفجير كفاح مسلح في الضفة، قبل نضج شروط خوض هذا الكفاح ؛ أولاً ، لوقوع الأهالي أسرى الإحباط؛ وثانيًا لانسداد أُفق أي نضال ضد الاحتلال، المحكوم بعودة النظام الأردني بقمعه الأشرس من الاحتلال الصهيوني؛ وثالثًا لعدم معاناة الأهالي من البطالة؛ ورابعًا لأن أجهزة الأمن الأردنية كانت شنّت حملة اعتقالات واسعة، في أبريل/ نيسان 1966، ضد كل الأحزاب الوطنية هناك **(الشيوعي ، البعث، والقوميين العرب)** .

بينما اندلعت مقاومة عارمة للاحتلال في قطاع غزة، أولاً لأن أفق المقاومة كان محكومًا بسلطة فلسطينية، أو بإدارة مصرية؛ وثانياً فإن الاحتلال سرَّح نسبة كبيرة من الموظفين، وأحرق الكثير من مراكب الصيد، وتسبب في كساد التجارة، وضرب الزراعة، ونشر البطالة وبائيًا ؛ وثالثاً فإن القوى الوطنية ظلت محتفظة بعافيتها؛ ورابعًا فإن ثمة التربية العسكرية لنسبة غير قليلة من الأهالي ؛ وخامسًا هناك الكرامة الوطنية التي جرحها الاحتلال. وإن توحدت المقاومة في الضفة والقطاع، ما بعد صيف 1973، حين بدت السلطة الوطنية الفلسطينية في الأفق.

فيما تعملق العمل الفدائي في الضفة الشرقية للأردن، بعد أن تصورت الشعوب العربية أن فشل الجيوش النظامية يعني أن حرب العصابات هي الأجدى، خاصة بعد **"معركة الكرامة"**

(1968/3/21). وما أن استرد النظام الأردني أنفاسه، حتى كرر محاولاته لاغتيال منظمات المقاومة، إلى أن نجح النظام الأردني في هذه المهمة، خلال مذابح سبتمبر/أيلول 1970، وجرش (يوليو/تموز 1971). واضطر من تبقى من المقاومة للانتقال إلى سوريا، ومنها إلى لبنان. وبعد قتال جسور مع الاجتياح الإسرائيلي(1982) ، تم الاتفاق مع واشنطن على خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، الأمر الذي تم، في الثلث الأخير من أغسطس/آب 1982، بعد تورُّط المقاومة الفلسطينية في الحرب الأهلية اللبنانية (ربيع 1975 – خريف 1976).

بعد أن أرخت القيادة الفلسطينية المتنفِّذة قلوعها لرياح المشاريع الأمريكية، جرى الانشقاق الكبير في **"فتح"** (1983/5/9) ، وفي سياقه جرى انقسام طولي في **منظمة التحرير** ، واتحاداتها النقابية.

جاء هذا كله، بعد أن كان الرئيس المصري، **أنور السادات**، قد تصالح مع العدو الصهيوني، وعقد معه **"معاهدة السلام"** (مارس 1979)، وقبلها سلَّم ما تبقى من أوراقه لعدونا الرئيسي، الولايات المتحدة، في **"اتفاقية كامب ديفيد"** (سبتمبر 1978). ودخل **السادات** في سباق مع الكيان الصهيوني، كي يثبت **السادات** بأنه أنفع لواشنطن من ذاك الكيان. في الوقت الذي أبدت القيادة الفلسطينية المتنفذة معارضة خجولة لأداء **السادات** هذا. وهكذا أحدثت الاتفاقيتان ثغرة واسعة في حائط المواجهة مع العدو الصهيوني.

الانتفاضة الأولى

كفّ الداخل الفلسطيني عن تعليق الأمل على خارجه، كما أسقط الداخل النظام العربي من حسابه، بعد أن هبط الأخير بالقضية الفلسطينية في سلَّم أولوياته، وأحل إيران محل الكيان الصهيوني في خانة الأعداء. فيما فاض الكيل بالداخل، بعد أكثر من عشرين سنة من الاحتلال الفاشي المذل المهين. حتى إذا ما دهس سائق نقل صهيوني ثمانية عمال فلسطينيين ، عند **معبر إيريز** ، على حدود قطاع غزة مع الكيان (1987/12/8) ، انفجر القطاع في انتفاضة عارمة، وتبعته الضفة ؛ فيما استغلتها قيادة الخارج في مساومة مبتذلة مع العدو، وسرعان ما ظهر رأسان للانتفاضة **(القيادة الوطنية الموحدة، وحماس)**؛ و انفلت الاغتيال السياسي من عقاله، وأخذت الكلفة البشرية للانتفاضة في الارتفاع المطرد، وتأخر مردودها؛ بينما ظل النظام العربي على وهنه، وتركت **حرب الخليج الثانية** آثارها الكارثية على الانتفاضة ؛ بينما فقدت الانتفاضة سندها الدولي ؛ المتمثل في "المعسكر الاشتراكي"، الذي انهار (1989)، والاتحاد السوفييتي الذي انفرط عقده (1991).

لقد قطرت الانتفاضة مجتمع الضفة والقطاع، في القيم، والعادات، والوعي السياسي، فيما عجزت القيادة المتنفذة في الخارج عن تثمير هذا الكنز الكفاحي. فكان **"اتفاق أوسلو"** سيء الصيت. وكان **عرفات** دلف إلى **نفق أوسلو**، متوهمًا منه بأنه يفلت بذلك من المحاولات الدؤوبة لدول الخليج من أجل الإطاحة به، عقابًا له على مساندته صدام حسين في حرب الخليج الثانية؛ فضلاً عن خشيته من الصعود المطرد لحماس، وتخوفه من أن تعمد واشنطن إلى اعتماد الوفد الفلسطيني المفاوض بديلاً عن عرفات، أو عودة الملك حسين إلى الضفة. لذا تقدم عرفات بالسعر الأدنى، فرست عليه المناقصة الصهيونية.

أما الكيان الصهيوني، فيكون باتفاق أوسلو أزاح ،أولاً، العائق الفلسطيني من طريق المتلهفين من حكام العرب للصلح مع العدو الصهيوني **(لسنا فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين!)**؛ وثانيًا في محاولة يائسة لتجميل الوجه البشع للصهيونية وكيانها. فيما اعترف اللص الصهيوني بضحيته **(م.ت.ف.)**. فغدت مناطق الحكم الذاتي شريطًا حدوديًا جديدًا، ولم يعد الحوار مع الصهاينة محرَّمًا، وتبعثر الصف الوطني الفلسطيني، وحُرِم الشعب الفلسطيني من حقي العودة وتقرير المصير، فيما توسع الكيان في التهام الأرض، وبناء المستوطنات، والسطو على المزيد من مياه الضفة والقطاع؛ التي هبط الاتفاق بأراضيها إلى مجرد أراض متنازع عليها؛ وأزاحها من تحت المظلة الدولية؛ ومزَّق الأرض والشعب الفلسطينيين، جغرافيًا؛ وحوَّل معظم فدائيْي الأمس إلى وكلاء للمحتل؛ فسقط برقع الحياء عن "المطبِّعين".

من العبث التوهم بأن التفاوض من حضيض الهزيمة، يمكن أن يأتي بأكثر من سلام المغلوب على أمره، أي استسلام كامل للعدو!

أما المسؤولون الذين سألوا: **"ما البديل؟"** ، فردنا عليهم بسيطًا؛ إذ إن هذا السؤال يعني أن سائله قد اقترف خطيئة، فضلاً عن أن من يعجز عليه أن يسارع إلى تقديم استقالته، ولا يتورط في خطيئة وطنية، ويحاول الظهور في صورة "المضطر"!

انتفاضة الأقصى والاستقلال

لذا، لم يكن من المستهجن تورُّط السلطة في أعمال الفساد ، والاستبداد والقمع غير المسبوقة. وفجأة لاح الأمل ، بمجرد أن فتحت حكومة العدو (1996/9/25) نفقاً تحت المسجد الأقصى أمام السيَّاح، فانفجرت **"هبَّة النفق"**، على مدى ثلاثة أيام متصلة، سقط خلالها 84 شهيدًا فلسطينيًا، عدا مئات الجرحى. وفي كامب ديفيد الثانية (يوليو/تموز 2000)، تأكد لعرفات مدى كارثية أوسلو ، فيما كان **"حزب الله"** أجبر الصهاينة على الإفلات بحياتهم من جنوب لبنان (2000/5/25)/ ما اضطر **عرفات** إلى تفجير **"انتفاضة الأقصى والاستقلال"**، في 2000/9/28، أولاً ليحرف السخط الشعبي ضد السلطة في اتجاه العدو الصهيوني؛ وثانيًا ليحرِّك التسوية، بضغط من الانتفاضة. لكن زمام الانتفاضة أفلت من بين يديّ **عرفات**، بانخراط بقية الفصائل فيها، في غياب استراتيجية إجماع وطني، وجبهة متحدة؛ ما أفضى إلى إخفاق الانتفاضة، وبكلفة عالية.

خرج عرفات على النص، فعاجله **شارون** بالقتل (2004/11/11)، وحمل **محمود عباس** (أبو مازن) إلى سدّة رئاسة السلطة، و**منظمة التحرير**، و**"فتح"**؛ وبذا تأكد للكافة بأنه إذا كان النظام العربي قد استأثر بتحديد ملامح القائد الفلسطيني، منذ قيام جامعة الدول العربية (1945)، وحتى دخول **عرفات** إلى قطاع غزة (1994/7/4)، فإن العدو الصهيو-أمريكي هو من غدا يحدد ملامح ذاك القائد.

نجح نظام **مبارك** في انتزاع اتفاق تهدئة من فصائل المقاومة الفلسطينية (القاهرة – 2005/3/17). وسرعان ما اضطر **شارون** إلى سحب قواته من قطاع غزة (سبتمبر/ أيلول 2005)، تحت ضغط المقاومة، ما أسهم في دفع **"حماس"** إلى دخول انتخابات المجلس التشريعي (مطلع 2006)، حيث ظفرت بغالبية مقاعد المجلس، لكنها عجزت عن الجمع بين

المقاومة والسلطة، بينما حالت أجهزة **"فتح"** دون تمكين **"حماس"** من الإدارة، وحين نمى إلى علم الأخيرة بأن **"الأمن الوقائي"** سينفذ مذبحة ضد **"حماس"** في القطاع، سارعت الأخ يرة فتغدت بكل أجهزة أمن **"فتح"**، قبل أن تتعشي هذه الأجهزة بـ **حماس!** فاستجد انقسام جغرافي ما بين **"حماس"** في القطاع، و**"فتح"** والمرتبطين بها في الضفة. وأخفقت كل اتفاقات المصالحة بينهما، أولاً بسبب **"الفيتو"** الصهيو- أمريكي، الذي يلتزم به **عباس**، ما يجعله لا يستطيع إنجاز المصالحة، حتى لو أراد، فما بالك وهو لا يريد؟! ولا تزال قضيتنا الوطنية تتآكل، بينما **عباس** ينفِّذ المشروع الصهيوني في المجال الفلسطيني .

بدلاً من الخاتمة

في الاستخلاص والاستشراف

"في فلسطين نُدافع عن مستقبل مصر" ، جملة بالغة الدلالة ،وردت على لسان المفكر اليساري المصري المرموق ، الدكتور اسماعيل صبري عبد الله ، في حديث صحفي ثري ومُركَّز ، إلى الصحفية المصرية ، منى عزت ، قبل نحو عقد ونصف العقد من السنين . في المتن قال إسماعيل : "يجب أن نعلم جيدًا بأننا عندما دخلنا الحروب مع إسرائيل [1973/1967/1956/1948] لم يكن دفاعًا عن فلسطين فحسب ، بل دفاعًا عن مستقبل مصر ؛ فإن الصراع الفلسطيني _ الإسرائيلي هو صراع مصري _إسرائيلي ، على المدى الطويل ؛ فعبر التاريخ ، دائمًا ، يأتي لمصر الغزاة عن طريق فلسطين" . استطرد صاحب كتاب "في مواجهة إسرائيل" (1969) :"عندما جاءت حرب أكتوبر 1973 ، أحدثت هزَّة داخل الصفوف الإسرائيلية ، وبدأ الجيش يتفكك ، وانتشر الفساد ، وكثرت حوادث اعتداءات الجنرالات على المجنَّدات ، وتفشَّت ظاهرة الهروب من التجنيد . من الصعب اتفاق جميع الإسرائيليين على موقف موحَّد . وفي الوقت نفسه ، أدرك الجيل القديم في إسرائيل عدم جدوى الحروب ، ووجد البديل في الهيمنة الاقتصادية . كما رأى الجيل القديم بإمكان إسرائيل السيطرة على المنطقة بأسرها ، عن طريق بناء قوة علمية ، واقتصادية . ومن هنا برزت فكرة مشروع "الشرق أوسطية" ،لشيمون بيريز . والجدير بالذكر أن هذا المشروع ليس بالجديد على العقلية الإسرائيلية ؛ فقد سبق لمناحم بيجن أن أعلن ، في كلمة له : (لو اجتمع العقل اليهودي مع المال العربي ، فسوف يتغير وجه المنطقة) ... وتُعد مصر المنافس الوحيد لإسرائيل في المنطقة ، في هذا المجال [الاقتصادي] ؛ وطبيعة الصراع بينهما على الوجود ... لذا ، تحرص إسرائيل على التغلغل في الاقتصاد المصري ، والخوف من شراء إسرائيل لمحلات (عمر أفندي) ، و (صيدناوي) ، المعروفة بفروعها المتعددة ،في جميع أنحاء الجمهورية . وتُمثِّل الطبقة الوسطى أكبر قوة شرائية لدى هذه المحلات " . ونبَّه هذا المفكر الكبير إلى "مسألة خطيرة ؛وهي أن إسرائيل تهدف من التسوية مع العرب [دون الفلسطينيين] ، تحقيق التغلغل في المنطقة العربية ، للهيمنة الاقتصادية ،والتكنولوجية ، وبالتالي تُعوِّض إسرائيل صغر سوقها ، وتّصبح همزة وصل ، بين الرأسمالية العالمية والمنطقة . وبالفعل ، تُعَد تل أبيب لتُصبح عاصمة رجال الأعمال ، أما القدس ، فهي العاصمة الدينية " (1) .

لا يتركنا اسماعيل بدون أن يمُدنا بالحل ، الذي يكمن ـ برأيه ـ : "في التكامل العربي ، و إقامة تجمُّع اقتصادي ، على أساس ديمقراطي ، يمتلك القدرة على التفاوض ، في المسائل الاقتصادية ، من منطلق قوة ، مع الشركات الكبرى ، وليس الحكومات " . أما ما نحتاجه هنا ،

(1) د.إسماعيل صبري عبد الله : في فلسطين ندافع عن مستقبل مصر ، أجرت الحديث منى عزت ، **ذاكرة فلسطين** (القاهرة) ، العدد الثاني ، شباط /فبراير – أيار/ مايو 2001 ، ص 11-14.

فشروط أساسية ، يجب أن تتوافر ، أولًا ، لكي يُصبح المناخ ملائمًا لجذب الرأسمالية المكوكبة . وتتمثل هذه الشروط في:
"تحقيق **التنمية المطردة** ؛
"ارتفاع مستوى المعيشة ،مما يحافظ على تماسك الطبقة الوسطى ، التي تمثِّل أكبر قوى شرائية ، في أي قُطر؛
"تكوين **قاعدة علمية ، وتكنولوجية،و تطوير القدرات البشرية** ؛

- **"تطبيق الديمقراطية ، والشفافية** ؛ حيث يحرص رأس المال على معرفة جميع الاتجاهات السياسية ، في الدولة التي يرغب الاستثمار بها ؛ لكي يعرف مع مَن يتعامل ، ويضمن تحقيق الاستقرار السياسي للبلاد . لذا، يجب أن تُبادر الدول العربية باتخاذ الخطوات العملية ، للعبور إلى الكيانات الكبرى ، وأن تعي جيدًا بأن الدولة الصغيرة لا مكان لها ، في المستقبل " . وقطعًا للشك باليقين ، أكد اسماعيل :"نعم ، نمتلك المقوِّمات ؛ فمن الممكن بناء قاعدة علمية عربية ، وتنشيط الطاقات المعطَّلة ، في مجال البحث العلمي ، فضلًا عن وجود دراسات ، مُعدَّة ، بالفعل ، لتحقيق هذا المشروع على يد خبراء ، ومتخصصين " .

مادامت المقوِّمات متوفرة ، فما الذي يُعيقنا ؟! برأي هذا المفكر الموسوعي : "مُصيبتنا أن الحكام العرب لا يريدون الوحدة ؛ فهم يعلمون جيدًا بأنهم أول ضحاياها . لذا ، أوكد على أن الوحدة ، والتنمية ، قضية شعبية ، ويجب أن تنتصر إرادة الشعوب ، في النهاية " .

تجليات وحدة مصر وفلسطين

ثمة وحدة التاريخ العريقة بين مصر وفلسطين ، وإن توالدت منها وحدات في مجالات أخرى ، أفضت إلى عروة وثقى بين القُطريْن ، فضلًا عن المصير المشترك .

1) **وحدة التاريخ** ؛ ما خلق روابط حيوية ، روحية ، وإنسانية ، وجغرافية ، ودينية ، بدءًا من رحلة إبراهيم (عليه السلام) إلى مصر ، تلتها رحلة النبي يوسف (عليه السلام) ، وآل يعقوب ، إلى مصر ، من "أرض كنعان" . وما يتردد عن رحلة النبي موسى من مصر إلى فلسطين ؛ فالرحلة المقدَّسة للسيد المسيح (عليه السلام) ، والعذراء البتول . كل ذلك قبل الفتح العربي الإسلامي ، الذي جاء من الشرق ، من الأسباط ، ومن الجزيرة العربية .
2) **وحدة الجغرافيا** ؛ حيث يُشكل القُطران وحدة جغرافية _استراتيجية ، بلا فواصل ،أو حواجز، أو عوائق . لذا لم يكن غريبًا أن تخوض مصر معظم حروبها ، منذ حملات الفراعنة على الحيثيين ، في الشرق ، ثم رحلة التجارة مع أهل فلسطين وفينيقيا ، ثم معارك مصر مع التتار (معركة عين جالوت) ومع الفرنجة ، والمشاركة في مقاتلة العثمانيين ، أوآخر الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، الذين حاولوا احتلال قناة السويس ،للتحكم في نتيجة تلك الحرب
3) **فلسطين قضية أمن قومي مصري** ؛ الأمر الذي تجلى في الحرب العربية _الإسرائيلية الأولى (1948) ، أكثر مما تبعها من حروب (1956/1967/1973) . وقد غدت فلسطين ، عند ثورة يوليو 1952، ضمن الدائرة الأولى (العربية) في الدوائر

الاستراتيجية الثلاث لتلك الثورة ، إلى جانب الدائرتيْن الأفريقية والإسلامية. حتى الدائرتيْن الأخيرتيْن توجهت إليهما ثورة يوليو من أجل فلسطين .

4) **في فلسطين تَم التحوُّل** : انغمست ثورة يوليو في قضية إجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ، الأمر الذي لم يتم الاتفاق عليه ، إلا في أكتوبر 1954 ، وتم تنفيذه ، بعد نحو عشرين شهرًا . وهو الجلاء الذي يذلت إسرائيل قصارى جهدها لإحباطه **(فضيحة لافون*)** ، ثم جاء عدوان الوحدة 101 الإسرائيلية على مدينة غزة (1955/2/28) ، والانتفاضة التي تلتها ، فوافق عبد الناصر على مطالبها الثلاثة (إلغاء "مشروع سيناء" ؛ تحصين القطاع وتسليحه ؛ وإشاعة الحريات الدمقراطية فيه) . وبعد أن ظل عبد الناصر يطلب السلاح من الولايات المتحدة ، على مدى نحو ثلاثين شهرًا متصلة ، فاض به الكيل ،وانعطف يطلب السلاح السوفياتي كما هو معروف . ما أدخل الوطن العربي في نهوض قومي ، بدءًا من "صفقة الأسلحة التشيكية" ، واعتراف مصر بالصين الشعبية ، ما أوغر صدر الإدارة الأمريكية عليه ، فسحبت عرضها لتمويل مشروع السد العالي في مصر ، وفي أذيالها سحبت لندن والبنك الدولي عرضيهما لتمويل المشروع نفسه . فرد عبد الناصر بتأميم قناة السويس (1956/7/26) ، وسرعان ما رد الغرب الاستعماري بـ "العدوان الثلاثي" ، الذي أخفق بفعل صمود القيادة السياسية المصرية ، والتفاف الجماهير المصرية من حولها ، واستحداث تضامن شعبي عربي غير مسبوق مع مصر ، ووصل ذاك النهوض إلى ذروته بتحقيق الوحدة المصرية_السورية (1958/2/22) ، ثم اندلاع ثورة وطنية في العراق ، اجتثت النظام الفاسد هناك (1958/7/14) . ثم ما كان من حث عبد الناصر الشعب الفلسطيني على أخذ قضيته الوطنية بين يديه (1962/6/22) ؛ ما عجَّل بظهور نحو ثلاثين فصيلًا فدائيًا ، قبل مرور العام الواحد على ذاك الحث . ومن منا يمكنه أن ينسى دور عبد الناصر المحوري في ظهور "منظمة التحرير الفلسطينية " ، حين دعا الرئيس المصري إلى عقد قمة عربية (1963/12/23) ، التي انعقدت فعلًا (القاهرة ، 13 /1964/1) ، وأوكلت إلى أحمد الشقيري استمزاج رأي مختلف التجمعات الفلسطينية في الطريقة التي يمكن إحياء الكيان السياسي الفلسطيني ، لكن الشقيري _ بدعم من عبد الناصر _ فاجأ القمة العربية الثانية (الاسكندرية، سبتمبر 1964) ، بالأمر المقضي ، في صورة "منظمة التحرير الفلسطينية" .

أما ما فعله السادات فيؤكد ، مجددًا ، بأن **الموقف من فلسطين هو معيار وطني مصري ، بامتياز** .

تبقى الكلمة الفصل للعلامة المصري المرموق ، د.جمال حمدان ،في موسوعته "شخصية مصر " ، وفيها أكد "إن مصر ، بالذات ، محكوم عليها بالعروبة ، وبالزعامة ، وأيضًا بتحرير فلسطين ، وإلا فبالإعدام " .

***فضيحة لافون:** أمرت المخابرات العسكرية الإسرائيلية ، في منتصف يوليو1954 ، عملاء لها في مصر بتنفيذ أعمال تخريب ضد المنشآت البريطانية والأمريكية ، في القاهرة والأسكندرية ، بهدف نسف العلاقات الأمريكية _المصرية ،وتعطيل جلاء القوات البريطانية عن مصر . لكن الأمن المصري كشف ، بالمصادفة ، أمر أولئك العملاء . واتهم رجال رجال بنجوريون ، خصم بنحاس لافون ، وزير الدفاع ،آنذاك، بتدبير هذه المحاولة الفاشلة ، فحملت اسمه ، زورًا وبهتانًا.

استنتاجات

- كل الذين عملوا ضد قضية مصر ، كان طبيعيًا أن يُعادوا الشعب الفلسطيني ، وقضيته الوطنية ؛
- ثمة مفارقة بين التظاهرة المليونية في القاهرة ، أواخر 1947 ،تنديدًا بقرار تقسيم فلسطين ، وبين قرار **حكومة النقراشي** بعدم إرسال الجيش المصري إلى فلسطين ؛

- كل الوطنيين المصريين يقفون مع فلسطين ، كل من منطلقه الفكري السياسي ، ومع اختلاف هذه المنطلقات ، فإن التوجُّه واحد ، وعيًا بأن فلسطين هي بوابة مصر الشرقية، وعتبتها ، فمن يُفرِّط في فلسطين يُفرِّط في أمن مصر . إلى من يرى بأن **فلسطين قضية عربية** ؛ أولًا لأنها جزء أصيل من الوطن العربي ، وثانيًا لأن الصهاينة بدأوا بها ، لاتخاذها لوحة قفز إلى **"إسرائيل الكبرى"** ، وقد أغراهم الوهن العربي المديد على إشهار **"إسرائيل العظمى"** . لذلك فأعداء مصر وفلسطين يبذلون قصارى جهدهم لإسدال الستار على محددات الموقف الوطني المصري من فلسطين؛
- البعض يقول إن مصر لطالما ضحَّت من أجل فلسطين ، في حروب 1948 ، 1956 ، 1967 ،1973 ، بينما آخرون يؤكدون بأن مصر إنما كانت تخوض حروبها هي هنا .بينما الأدق أننا أمام **أمة واحدة ، وقضية واحدة ، وعدو واحد .**